جيمز هنري برستد

والبحث عن آثار الانسان الاول في مصر

للاستاذ مصطفى عامر

استاذ الجغرافية بكلية الآداب في الجامعة المصرية

obeikandl.com

obeikandl.com

فكرة نبيلة تلك التي دعت اليها جماعة البرْدي ، اذ شاءت ان تعيد الحياة ، خلال أسبوع من الزمن ، الى مصر القديمة ، وان تحيي في نفس الوقت ذكرى عالم من اكبر علماء الآثار المصرية وهو الاستاذ جيمس هنري برستد ، الذي وافته المنية قرب نهاية العام الماضي. وما أحوج مصر الى احياء تاريخها القديم ، ففيه صفحات مجد وفخار ، وفيه دروس في الوطنية والعظمة القومية ، مما لا نعرف له مثيلاً في تاريخ اي شعب من الشعوب . ولا ريب ان تخليد ذكرى العلماء الذين ساهموا في ازاحة الستار عن تلك الفترة من تاريخ مصر القومي بعد ان بقيت مدة طويلة سرًّا من الاسرار التي لا يُعرف كنهها ، لمن الامور التي تستحق منا كمصريين كل عناية وكل اهتمام

لذلك كان من دواعي سروري ان دُعيت الى الاشتراك في احياء هذا الاسبوع ، وكان سروري اعظم اذ رأيت الفرصة قد سَنَحَتْ لدفع قسط صغير مما في عنقنا من دين كبير للراحل العظيم الاستاذ برستد فقد أنفق من حياته ، زهاء اربعين سنة ، في البحث والتنقيب عن آثار أجدادنا العظام ، وعكف على بحث نواحي التاريخ الفرعوني ، وكتب فيه ، بحماسة لا نعرفها عند المؤرخين من أبناء البلاد ، وأقام الادلة وجمع الحجج ليظهر فضل مصر ، وفضل المصريين ، على العالم أجمع ، فوادي النيل عنده مهد الحضارة البشرية الاولى ، ومنه انتشرت ، حتى عمَّ أثرها في النهاية بلاد الشرق وبلاد الغرب على السواء

وسوف يحاضركم زملائي الافاضل في مظاهر تلك الحضارة العظيمة ومدى انتشارها ، وأما أنا فسأقصر كلمتي على ناحية هامة من نواحي نشاط برستد ، وهي من ناحية ربما كانت غير معروفة تماماً للكثيرين ، وان كان قد خصها في السنوات الاخيرة من حياته بقسط كبير من عنايته

فقد كان برستد من المؤرخين القلائل ذوي الادراك الواسع الذين يدرسون تاريخ المجموعة البشرية كوحدة كاملة غير مجزأة . وقد رأى منذ زمن بعيد ، ان فهم التاريخ الاوربي يرتبط الى حدٍّ كبير ، بدرس تاريخ الشرق القديم ، وان تاريخ الشرق لا يكون واضحاً تماماً ، الاَّ اذا عرفنا أدوار التطور التي مرَّ فيها الانسان الاول منذ ظهوره في وادي النيل وفي غرب آسيا. ففي تلك الجهات ، قامت من قديم الزمان ، دول لها حضارات ، وعلى حدودها بقيت اوربا الهمجية لمدة ألفي سنة ، دون ان تتأثر بها الاَّ من الجهة الجنوبية الشرقية منها ، حيث كان اتصال اليونان بوادي النيل من جهة ، وبساحل الاناضول ، موطن الحيثيين من جهة أخرى . ومن اليونان

انتشرت ثمرة عقول سكان البحر الابيض الى ذلك العالم الاوربي المتأخر، على انه كان انتشاراً بطيئاً للغاية، ولم يصل اليه، الاّ بعد وقت طويل من بزوغ شمس التاريخ

وقد أصبح التاريخ القديم لاقطار الشرق الادنى، بعد أن تمكن العلماء من حل رموز اللغة الهيروغليفية واللغة المسمارية، حلقة عظيمة الاهمية، من حلقات التاريخ البشري العام. فعنده تنتهي الأدوار، المختلفة التي مرّ فيها الانسان خلال عصر ما قبل التاريخ، ومنهُ تبدأ الحوادث العظيمة التي انتهت بظهور الحضارة الاوربية الحديثة

عرف برستد كل هذا وقدّر ما لتاريخ مصر وجيرانها من قيمة علمية لا تقدّر، وعرف أن بحثاً شاملاً لتاريخ تلك الاقطار يتطلب مجهودَ جماعة، لا مجهود فرد، وتمكن في النهاية، على الرغم مما أحاط بهِ من صعوبات، من انشاء هيئة علمية، تقوم بتنظيم نواحي الدراسة المختلفة وتعمل على إنقاذ تراث الشرق القديم من الضياع والاندثار. هذه هي الامنية، التي طالما كانت حلماً من أحلامهِ، تحققت في سنة ١٩١٩، اذ تمّ تأسيس «المعهد الشرقي» (Oriental Institute) بجامعة شيكاجو، بمعونة مستر روكفلر الصغير. وقد وضع برستد برنامجاً جامعاً للمعهد، وجعل لهُ اغراضاً ثلاثة :

(١) انشاء البعثات الاثرية للبحث عن الآثار من الجهات الهامة في الشرق الادنى، وهي الجهات التي قامت فيها الحضارات القديمة

(٢) جمع المعلومات من كل تلك الجهات على ان تشمل النواحي الجنسية والثقافية والانثربوجغرافية (الجغرافية البشرية)

(٣) درس تلك المعلومات في المركز الرئيسي للمعهد، وتحليلها وربط بعضها ببعض، حتى تكون الصورة النهائية للنشاط البشري في تلك الجهات كاملة لا نقص فيها

وقد جهّز برستد هذا المعهد بكل ما يمكن ان يكون لدى معهد علمي حديث من معدات للبحث والدرس، وأنشأ لهُ فروعاً في الاماكن الاثرية الهامة في الشرق الادنى، وجذب اليهِ عدداً كبيراً من الباحثين والاخصائيين من كل أمة ومن كل قطر، حتى أصبح لدى المعهد عدد كبير من اصحاب الكفايات في كل علم من العلوم التي تتصل بدراسة آثار الشرق وتاريخه، كاللغات الشرقية القديمة، والانثربولوجيا، والنبات، والحيوان، والجيولوجيا والجغرافيا البشرية

وكان طبيعيًّا ان يشمل هذا البرنامج الواسع، دراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر وفي غرب آسيا، على النمط العلمي الذي دُرست بهِ آثار ذلك العصر في اوربا. على ان ذلك لم يأت الاّ بعد سبع سنوات من تاريخ انشاء المعهد، عكف برستد في أثنائها على تنظيم تلك الناحية الجديدة من نواحي البحث، وأنشأ لها هيئة خاصة بدأت عملها في مصر في شتاء سنة ١٩٢٦ —

سنة ١٩٢٧ . وقد حدّد اغراض تلك الهيئة بجمع كل انواع الأدلة الخاصة بمراحل تقدم الانسان خلال العصور الحجرية ، مع بحث الظروف الطبيعية المرتبطة بظهور الانسان الاول ، ودراسة ما هنالك من علاقة بين آثار الانسان الاول في الشرق الادنى ، وآثاره المعروفة في اوربا

وقد كان واضحاً كل الوضوح منذ البداية ، أن مثل تلك الدراسة ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسة الاحوال الجيولوجية والمناخية في زمن البليوسين وزمن البليوستوسين ، وان فحص الأدلة الكثيرة يحتاج الى اخصائيين في الجيولوجيا الحديثة وفي التكوينات السطحية المتأخرة، على ان يكون هؤلاء في نفس الوقت من ذوي الخبرة بآثار الانسان الاول ومسائله المختلفة . فالبحث كما ترى بحث جيولوجي في بعض نواحيه ، وبحث اركيولوجي في النواحي الاخرى . ويتضح ما لذلك من الشأن الكبير اذا عرفنا ، ان معلوماتنا عن التاريخ الجيولوجي لنهر النيل كانت الى عهد قريب ، ناقصة نقصاً كبيراً ، حتى في بعض المسائل الهامة كطريقة تكوين الوادي . أما الآن فقد اصبح الجيولوجي يعرف ان الوادي تكوّن بفعل النحت النهري ، كما يعرف الاركيولوجي ان الانسان ظهر في الوادي في دور معين من الادوار التي مرّ فيها الوادي في اثناء تكوينه

على ان الابحاث الخارجية بالعصور الحجرية في مصر لم تكن مجهولة تماماً قبل اليوم، ولكنها لم تكن ابحاثاً منظّمة ، بل كانت مقصورة على بعض المناطق دون الاخرى ، كما ان الجيولوجيين كانوا يوجّهون كل عنايتهم الى الناحية الاقتصادية من الجيولوجيا ، وهي الناحية التي تعنى بالبحث عن المعادن في مرتفعات البحر الاحمر

لذلك كانت أبحاث المعهد الشرقي فريدة في بابها وكانت نتائجها ذات أهمية علمية كبيرة ، إذ أضافت الكثير الى معلوماتنا ، ووضعت أساساً علميًّا صحيحاً للدراسات التكميلية التي يمكن ان يقوم بها الباحثون في المستقبل . وقد وضع برستد بعثة ما قبل التاريخ تحت اشراف الدكتور ساندفورد (F. E. Sandford) يساعدهُ الدكتور أركل (W. G. Arkell) وهما من الجيولوجيين البريطانيين وأتمّت البعثة عملها بعد ست سنوات من البدء به ، تمكّنت في خلالها من بحث فزيوغرافية النهر والاراضي التي على جانبيه ، المسافة طولها ١٠٠٠ ميل من الشلال الثامن حتى البحر الابيض المتوسط. وقد جمعت في أثناء رحلاتها أدلة كثيرة عن تاريخ الوادي واحوال سكانه منذ ظهور الانسان لأول مرة ، وامتدّ البحث في منطقة قنا الى داخل الصحراء والى ساحل البحر الاحمر ، حيث وُجدت أدلة جديدة تثبت وجود انسان العصر الحجري القديم

كذلك تمكنت البعثة في عام ١٩٣٢ من فحص منطقة وادي النيل ، بين الشلال الثاني ونهر عطبرة ، وعلى ذلك تكون قد اجتمعت لديها الأدلة المختلفة ، على سكنى الانسان الاول في الوادي من شمال السودان حتى مصر السفلى . ومن تلك الادلة ، ومما جمعهُ الباحثون الكثيرون في

جهات الصحراء المختلفة من آثار ، سوف يمكننا في النهاية تكوين صورة واضحة عن حياة الانسان الاول في الركن الشمالي الشرقي من افريقية

وقد درست البعثة المصاطب التي توجد على جانبي النيل ووراءه ، والتي تكونت في الماضي عند ما كان النهر يقوم بنحت مجراه ، في وقت كان نزول المطر اكثر مما هو الآن ، وعرفت ان الانسان ظهر في الوادي بعد زمن طويل منذ ان بدأ النهر في تكوين تلك المصاطب ، بدليل ما تركه عليها من اسلحة صوانية هي في جملتها شبيهة بانواع اسلحة العصر الحجري القديم في اوربا. وقد تتبعت البعثة تلك المصاطب حتى ساحل البحر الابيض ، وعثرت فيها على مقادير كبيرة من الاسلحة ، وتمكنت من تحديد تاريخها وتتبع تطورها ، بفحص التكوينات ودرس الاصداف التي وجدت معها

وليس من شك في ان هذا النوع من الادلة له أهميته العلمية الكبيرة ، وهو يضع دراسة العصر الحجري القديم في وادي النيل على اساس سوف يساعد على حل الكثير من المسائل الخاصة بثقافات الانسان الاول في مصر . واذا كانت الدراسة الطباقية للاسلحة ، معروفة من قبل في بعض جهات مصر ، كدراسة Flint Rivers في وادي الملوك ، و Vignard في كوم امبو و Bovier-Lallierre في سهل العباسية ، الا انها كانت امثلة قليلة ، من اماكن متباعدة ، لا رابطة بينها . واما معظم الاسلحة التي جمعت منذ القرن الماضي ، فقد وجد على سطح الارض الصحراوية ، ولذلك كانت قيمتها العلمية محدودة ، لعدم تحديد تاريخها الجيولوجي. وقد عثر الهواة على الكثير منها ، وقام الاهالي بجمعها والمتاجرة فيها ، وهي ان كانت تساعد على ايضاح شيء ، فهو ان الصحراء كانت في العصر الحجري القديم آهلة بالسكان في معظم جهاتها

وقد أضافت البعثة الى ابحاثها في وادي النيل ، ابحاثاً تكميلية قامت بها في الصحراء الغربية في سنة ١٩٣٢ بالاشتراك مع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن . والرحلات في الصحراوات البعيدة تحتاج كما نعلم الى تنظيم خاص ، وهي من أشق الرحلات وأصعبها . وقد زارت البعثة « الواحات الخارجة » وجبل عوينات والفاشر وواحة سليمة ووادي حلفا ، وقطعت منذ قيامها حتى عودتها الى القاهرة حول ٥٠٠٠ ميل ، معظمها في جهات غير مطروقة. وجمعت في اثناء تلك الرحلة ، الكثير من الادلة على سكنى الانسان لتلك الجهات في العصور القديمة ، وذلك على الرغم من انها تخلو من الانسان في الوقت الحاضر ، كما عثرت في الجهة الجنوبية الغربية من الواحات الخارجة على قيعان بحيرات قديمة ، جفّ ماؤها منذ زمن بعيد ، وقد كان الانسان الاول يعيش على شواطئها كما تدل على ذلك آثاره . تلك هي المرة الاولى التي بحثت فيها الصحراء الواسعة في الجهة الجنوبية الغربية من مصر ، بحثاً اركيولوجياً منظماً

وقد حصلت البعثة من الابحاث التي قامت بها في اقليم الفيوم على نتائج لها خطرها . وهي وان كانت لا تتفق في بعض نواحيها مع النتائج التي وصل اليها بعض الباحثين الآخرين ، الاّ انها في مجموعها تدل على مجهود كبير لا يمكننا تجاهله . فقد درست البعثة طبوغرافية منخفض الفيوم ، وبحثت في طريقة تكوينه وفي علاقته بوادي النيل ، وحصلت على أدلة كثيرة عن حياة الانسان الاول في هذا الاقليم ، وعن الاحوال المناخية التي كانت تسود قديماً في الصحراء . أما الدراسة الاركيولوجية البحتة، فقد ساعدت على تتبع ثقافات الانسان الاول منذ العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الحديث ، عندما ابتكر الانسان صناعة الفخار، وزراعة الارض ، ونجح في استئناس الحيوان واخضاعه لاغراضه . والأدلة التي لدينا عن تلك الفترة الاخيرة الهامة من حياة الانسان ، قليلة للغاية في وادي النيل نفسه ، فقد اخفى الفرين ، الذي يملأ الوادي منذ ذلك العصر ، في جوفه معالم تلك الحضارة ، التي ربما كانت اقدم حضارة زراعية معروفة . ولنذكر هنا ان قطعاً من الشقف ، وأشياء اخرى تدل على وجود هذا الانسان الزارع في الوادي منذ القدم ، حصل عليها المعهد الشرقي من بئر عميقة حفرها في مركزه الجديد في الاقصر ، وبلغ عمقها اكثر من ٨٠ قدم . ومن المحتمل ان يكون هذا الشقف اقدم الانواع التي نعرفها في اية جهة من جهات العالم . اما سكان الوادي في ذلك الوقت فقد سكنوه قبل ان يتراكم فيه الفرين الى حدّ كبير

من هنا كانت اهمية الفيوم في دراسة حياة الانسان في العصر الحجري الحديث ، فقد بقيت آثاره ظاهرة فيها (وفي مرمده من غرب الدلتا) دون ان يغطيها الفرين ، كما حدث في الوادي لان الفيوميين القدماء سكنوا قرب شواطىء بحيرة عظيمة ملأت معظم نواحي المنخفض ، وقد وصل مستوى الماء فيها الى ارتفاع كبير . ومنذ اواخر العصر الحجري القديم اخذت الامطار تقل ومورد الماء ينضب ، وسطح الماء في البحيرة ينخفض . وقد حدث هذا بالتدريج وببطء تدل عليه الشواطىء المتعددة الجافة التي تركتها البحيرة القديمة وراءها بعد انكماشها والتي وجدت بين حصبائها آثار الانسان الاول التي يسهل تتبعها من اواسط العصر الحجري الحديث

وقد أدى هذا البحث الى معرفة الشيء الكثير عن الاحوال المناخية القديمة ، فقد كانت الامطار غزيرة حتى وسط العصر الحجري القديم (الزمن الالموستيري) ، وكان العشب يكسو معظم جهات الصحراء ، والماء يملأ معظم منخفض الفيوم ، غير انه في اواخر ذلك العصر ، اخذ شبح الجفاف يظهر بالتدريج ، ونقصان ماء البحيرة القديمة لأبلغ دليل على ذلك ، فقلّ الماء وشح ، وجفّ العشب ويبس ، وأصبحت حياة الصائد في هذا الجزء من قارة افريقية ، صعبة للغاية . وقد اضطر ، بسبب ذلك في النهاية ، الى الالتجاء الى وادي النيل ، كما لجأ اليه الحيوان

الذي يصيده ، وهنا في تلك البقعة المختارة ، توصل الانسان ، بعد كدٍ وجهد ، الى حل مشكلة الحياة الجديدة ، التي كان الجفاف اهم عامل في ايجادها . فابتكر الزراعة واستأنس الحيوان ، وبنى المسكن ، وعاش عيشة استقرار ، وكوّن الجماعة ونظمها على اساس جديد ، ومهد الطريق امام قيام حضارات ما قبل الاسرات ، وأمام اختراع الكتابة وبدء التاريخ

أما أقدم الادلة على وجود الانسان في مصر ، فقد وجدتها البعثة في الجهة الغربية من وادي النيل ، وبين الفيوم واهرام الجيزة ، اذ عثرت على مجرى ماء قديم ، امكن تتبعه لمسافة ٥٠ ميلا ، وفيه تكوينات عميقة من الحصباء ، تختلط معها الاسلحة الصوانية للانسان الاول ولما كان المعتقد ان هذا المجرى يرجع الى اواخر البليوسين واوائل البليوستوسين ، كانت تلك الاسلحة لأقدم انسان عرفهُ العلم للآن في جهات الشرق الادنى

هذا مجمل للجهود العظيمة التي قام بها المعهد الشرقي ، وعلى رأسه برستد ، للبحث عن السكان الاوّل في وادي النيل . وقد عرفنا هؤلاء في ادوار الوحشية الاولى ، يعيشون على الصيد ، في العصر الحجري القديم ، وتتبعنا حياتهم خلال عصر زاد فيه الجفاف ، وساءت معيشة الحيوان والانسان ، ثم رأيناهم ينتقلون من دور الصيد الى فجر نهضة جديدة ، اساسها زرع الارض واستئناس الحيوان في العصر الحجري الحديث . اما ذروة هذا الانقلاب الخطير ، ونتائج ادخال تلك الأسس الجديدة في نظام الحياة ، فنصها في عصر الدولة القديمة ، وفيما تركتهُ لنا من آثار توضح ما وصل اليه المصري الاول من تقدم في أول دور من أدوارهِ التاريخية .